« دروس في الفروسية من معركة مؤتة »

تأليف
الأستاذ الدكتور / يحيى الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية
جامعة قطر

دروس في الفروسية من معركة مؤتة

أ. د يحيى الجبوري

كان المسلمون في المدينة مهددين بأعداء ثلاثة ، تمثلهم قريس في جنوب المدينة ، وقبائل غطفان وأحلافها شرقي المدينة ، ويهود خيبر في شمال شرقي المدينة . وقد استطاع المسلمون أن يكسروا شوكة أعدائهم بعد معركة الخندق في السنة الرابعة من الهجرة ، وجاء صلح الحديبية ليدعم مركز المسلمين ، فاستطاعوا التخلص من الخطر اليهودي المتمثل بيهود خيبر في أوائل السنة السادسة ، ثم التوجه بالدعوة إلى خارج الجزيرة العربية ، فأرسل النبي -ﷺ- إلى ملوك وأمراء الجزيرة ، وخارج الجزيرة من فرس وروم وأحباش ، يدعوهم إلى الاسلام . وسبقت معركة مؤتة أحداث كانت سببا مباشرا أو غير مباشر لهذه المعركة ، منها مقتل أربعة عشر مسلما في ذات أطلاح ، وكان رسول الله -ﷺ- قد أرسل كعب بن عمير في أربعة عشر رجلا من أصحابه إلى ذات أطلاح من أرض الشام ، ولا بد أن هذا العدد القليل كان في مهمة تبليغ الدعوة لعرب الشام من الغساسنة أو في مهمة استطلاعية لم يذكرها المؤرخون ، ولقي المسلمون هناك جمعا من الغساسنة المتنصرين ، فأطبقوا على المسلمين وقتلوهم جميعا ، فلم ينج منهم الا جريح نجا بنفسه ، فسار تحت جنح الظلام فأتى المدينة وأخبر الرسول -ﷺ- ، فشق الأمر عليه وحزن على مقتل أصحابه(١) ، وكان الحارث الغساني حين قتل المسلمين قد هدد بالمسير إلى المدينة لمقاتلتهم . يضاف إلى ذلك أن الغساسنة قتلوا رسول رسول الله -ﷺ- صبرا ، وذلك حين أرسل النبي إلى ملوك وأمراء الجزيرة والدول المجاورة يدعوهم إلى الاسلام ، وأرسل إلى الحارث بن أبي شمّر الغساني حاكم بصرى والجولان الموالي للروم رسولا هو الحارث بن

عمير الأزدي بكتاب يدعوه فيه إلى الاسلام ، وحين بلغ الحارث أرض الشام وعند قرية (مؤتة) بالبلقاء عرض له أحد عمال الحارث الغساني وهو شرحبيل بن عمرو الغساني ، فلما تعرف عليه وأنه رسول رسول الله ، أمر به فأوثق رباطه ثم قدمه فضرب عنقه صبراً ، ولم يقتل لرسول الله - ﷺ - رسول غيره ، فبلغ رسول الله - ﷺ - الخبر فاشتد عليه(٢) . لهذه الأسباب ولغيرها مما لا نعلم ، جهز رسول الله -ﷺ- ثلاثة آلاف مقاتل من خيرة المسلمين وأمرهم أن يعسكروا بالجرف(٣) ، وهناك عَرَّفهم بالمهمة المنوطة بهم وهي أن يطأوا أرض الشام ويقاتلوا أعداء الاسلام الذين غدروا بأصحابه(٤) .

وكان هذا أول جيش يجرده النبي -ﷺ- ويسمي له ثلاثة قواد ، يتولون القيادة واحدا بعد الآخر ، ان استشهد الأول يليه صاحبه ، وكأن رسول الله -ﷺ- كان ينظر بعين الغيب ويستشرف مستقبل المعركة ، وكان أمر رسول الله -ﷺ- يقضي بأن يكون «زيد بن حارثة أمير الناس ، فان قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب ، فان قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، فان قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم»(٥) ، وقد أجمع المؤرخون على أن عدد الجيش المتوجه إلى أرض الشام ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان مسيره يوم الجمعة من شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وكان رسول الله -ﷺ- في وداع الجند المقاتل في سبيل الله ، وقد أوصاهم بوصية صارت متبعة للخلفاء والقادة بعده في عصور الاسلام ، يوم كان للاسلام دولة ، قال : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا» ، ثم توجه إلى زيد بن حارثة أمير الجيش قائلا : «وان لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم» ، الدخول في الاسلام أو إعطاء الجزية أو القتال ، وأوصاهم بالعابدين من النصارى في

صوامعهم خيرا ، وأوصاهم بالرفق بالضعاف «ولا تقتلن امرأة ولا صغيرا مرضعا ولا كبيرا فانيا» ، ومنعهم الفساد في الأرض «ولا تغرقن نخلا ولا تقطعن شجرا ولا تهدموا بيتا»(٦) . وعقد النبي لهم اللواء وكان أبيض ، ووقف المسلمون يودعون الجند ويدعون لهم قائلين : «دفع الله عنكم وردكم صالحين» ، وتوجه أكبر جيش للمسلمين إلى أرض الشام .

ويبدو أن أخبار الجيش الاسلامي قد سبقته إلى العدو ، فبلغ الخبر شرحبيل ابن عمرو الغساني عامل الروم على مناطق الشام الجنوبية ، فسارع في حشد جيش كثيف من القبائل الموالية ، وأبلغ الروم بتحركات الجيش الاسلامي ، وكان شرحبيل قد أرسل أخاه سدوس بن عمرو في خمسين رجلا ليستطلع خبر الجيش الاسلامي ، فقاتل المسلمون هؤلاء وظفروا بسدوس ومن معه ، ولما علموا بأن سدوسا هذا هو أخو شرحبيل ابن عمرو -الذي قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ - قتلوه ، وفزع شرحبيل حين علم بمقتل أخيه فتحصن وطلب النجدة من هرقل امبراطور الروم وكان في بيت المقدس ، فسارع هذا بنجدته بجيش كثيف ، واستعد الروم ومن معهم من الغساسنة والقبائل العربية الموالية ، ويقول الواقدي إن الرومان حشدوا لملاقاة المسلمين مائة ألف مقاتل من الغساسنة والقبائل الموالية (من بلى وبهراء ووائل وبكْر ولَخم وجُذَام) واجتمعوا في قرية (مآبَ)(٧) وعليهم رجل من بَلِيّ اسمه مالك(٨) ، وحشدوا أيضا من الجند الروماني بقيادة هرقل نفسه(٩) مائة ألف ، وعسكروا في بلدة مآب أيضا .

أما الجيش الاسلامي فقد تحرك من المدينة إلى وادي القرى مجتازا حدود الجزيرة عند تبوك ، ووطأ أرض الشام وبلغ مدينة معان من اقليم البلقاء في الأردن ، وتشاور المسلمون في أمر الحرب وفي كثافة جيش العدو نسبة إلى قلة جيش المسلمين ، ومهما كان رأينا في حقيقة العدد الذي ورد عن جيش الروم ،

ومهما كان يظن فيه من مبالغة (٢٠٠) ألف جندي نسبة إلى ثلاثة آلاف أي أن كل جندي مسلم يقابل سبعين جنديا من المشركين ، فان هذه النسبة تبقى عالية وجيش العدو يبقى كبيرا وكبيرا جدا ، بالاضافة إلى أن تجهيز الروم وعدته وآلته معروفة منذ القدم ، وأن جيس المسلمين يقاتل في غير أرضه وبينه وبين المدينة قرابة ستمائة ميل ، وأمام هذا الموقف المحرج وغير المتوقع ، كان لابد للمسلمين من التشاور وتغيير الخطط وتدبر الموقف الجديد ، فنزلوا في معان وهم أمام احتمالات : فاما أن يعلموا رسول الله -ﷺ- بكثافة جيش العدو وانتظار المدد ، أو الإذن بالعودة لأن مقاتلة هذه الجموع الهائلة عملية انتحارية بالغة الخسائر ، وأما أن يخوضو حربا طلبا للشهادة أو النصر . ودام التشاور في معان يومين ، ورجح لدى القوم الرأي القائل بالمضي في القتال ومبادأة العدو دون تحسب للنتائج ، وكان هذا الرأي قد أوجزه عبد الله بن رواحة في قوله : «يا قوم ، والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به»(١٠) ، ودعم رأيه عن قلة المسلمين وكثرة عدوهم بأمثلة من بدر وأحد فقال : «والله رأيتنا يوم بدر ما معنا الا فَرَسان ، ويوم أحد فرس واحد ، فانطلقوا بنا ، فانما هي إحدى الحسنيين ، إما ظهور عليهم فذلك الذي وعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة ، فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان »(١١) .

ولا شك أن هذا الرأي الذي صدر عن عاطفة اسلامية مغامرة ، ليس فيه من الحنكة الحربية شيء ، ولم يحسب حساب العواقب ، وغالبا ما يكون الرأي الآخر في مثل هذه المواقف خافتا خوف الاتهام بالجبن أو التردد أو قلة الأيمان ، وما دام صوت المعركة قد علا ، فأول ما ينبغي لأمير الجيش أن يعبئه التعبئة التي تفوت على العدو محاولة التطويق والإطباق على هذا الجيش الصغير القليل العدة والعدد . فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة وتحصنوا بها ، ثم جعل أمير الجيش زيد

بن حارثة قطبة بن قتادة العذري على الميمنة ، وعبادة بن مالك الأنصاري على الميسرة(١٢) ، أما القلب فكان زيد بن حارثة ومعه الأمراء من بعده جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة .

وأما جيش المشركين الذي يضم الروم فقائدهم هرقل ، وكان قائد القبائل العربية الموالية للروم مالك بن رافلة من قبيلة بَلِيَ(١٣) ، وتدفق هذا الجيش اللجب للقاء المسلمين ، وقد قدره المؤرخون بمائتي ألف ، وفيه من الكراع والسلاح ما يزيغ البصر ويرعب القلب ، وقد عبر عن هذا الموقف الحرج المفزع أبو هريرة وكان قد حضر مؤتة ، قال المقريزي : «فرأوا (يعني المسلمين) المشركين ومعهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، قال أبو هريرة : وقد شهدت ذلك فبرق بصري ، فقال ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة مالك ، كأنك ترى جموعا كثيرة ، قلت : نعم ، قال : لم تشهدنا ببدر ، اننا لم ننصر بالكثرة»(١٤) .

وبدأ الصدام ، وكانت المعركة هائلة رهيبة ، أبلى فيها المسلمون على قلتهم خير بلاء ، وقاتلوا أصدق قتال طيلة سبعة أيام متواصلة ، وصبرت القلة المؤمنة بوجه أمواج من جحافل الروم وصنائعهم من القبائل التي كانت على النصرانية أو على الشرك ، وقد خاضت القلة المؤمنة المتمثلة في ثلاثة آلاف مقاتل حربا شديدة عاصفة أمام مائتي ألف مقاتل طيلة الخمسة أيام الأولى ، ولم تستطع كثرة العدو أن تحقق أي نصر يذكر ، وفي اليوم السادس أنهك المسلمون ونزلت بهم الفجائع باستشهاد قادتهم الثلاثة واحدا تلو الآخر ، وتصور المصادر مصرع القادة وفجيعة المسلمين ، قال الطبري : «ثم التقى الناس فاقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله -ﷺ- حتى شاط(١٥) في رماح القوم»(١٦) ، وقال ابن سعد : «فمضى المسلمون إلى مؤتة ووافاهم المشركون ، فجاء منهم ما لاقبل لأحد به من

العدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، فالتقى المسلمون والمشركون ، فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم ، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل ، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعنا بالرماح رحمه الله»(١٧) ، وتسلم الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل فيها ومن ورائه جموع المسلمين فأبلى بلاء شديدا ، ثم أحاط به الروم فنزل عن فرسه وعقرها وقاتل حتى قطعت يده ، فحمل اللواء باليد الأخرى فقطعت يده الثانية ، فاحتضن اللواء بعضديه ، ثم اعتورته سيوف الرومان وهو يحتضن اللواء حتى أثخنته الجراح وفيه اثنتان وسبعون ضربة بسيف أو طعنة برمح(١٨) ، ويصور ابن هشام هذا المشهد البطولي المعجز قال «حدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل -رضى الله عنه- وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء ، ويقال أن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين»(١٩) ، وقال عبد الله بن عمر : «كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا في جسده بضعا وتسعون من ضربة ورمية»(٢٠) ، ووجدوا جميع هذه الطعنات التي أصيب ليس منها شيئا في دبره ، تلقاها كلها وهو مقبل(٢١) .

وبعد مصرع جعفر تسلم الراية عبد الله بن رواحة ، وقاتل بها حتى استشهد ، وتروي الأخبار -وكذلك يصف شعره- أن ابن رواحة تردد بعض التردد ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل(٢٢) .

وكما قتل من المسلمين قادتهم ، فقد قتل قائد العرب الموالين للروم مالك بن رافلة ، قتله قطبة بن قتادة العذري الذي كان على ميمنة المسلمين(٢٣) .

وبعد مصرع قادة المسلمين الثلاثة أصاب الوهن جيش المسلمين فتشتتوا ،

وأوقع الرومان بهم خسائر فادحة ، وكادت تصيبهم هزيمة منكرة ، خاصة وأن الجيش قد أنهكه القتال المتواصل غير المتكافيء طيلة ستة أيام ، وقد وصف أبو عامر وكان أحد من شهد المعركة يقول : «ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا»(٢٤) ، وتدارك الموقف أحد فرسان الأنصار وهو ثابت ابن أقرم الأنصاري الذي أخذ الراية ونادى في الناس : يا قوم ، يقتل المرء مقبلا خير من أن يقتل مدبرا ، فثاب إليه الناس ، ثم قال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، فارتضوه قائدا ، فسلم اللواء إلى خالد بن الوليد ، فأبى خالد قائلا : لا آخذه أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، فقال ثابت : خذه أيها الرجل فوالله ما أخذته الا لك ، أنت أعلم مني بالقتال(٢٥) . واجتمع المسلمون على قيادة خالد رغم حداثة اسلامه ، وكان عليه أن ينقذ المسلمين من موقف صعب وهلاك محقق .

كان هم خالد انقاذ الجيش الاسلامي وتأمين انسحابه بأقل خسائر ممكنة ، لأن عملية انسحاب فئة قليلة منهكة أمام جيش ضخم كثيف -تتاح له دائما فرصة الراحة والتناوب- أمر صعب ، لأنه المتوقع أن يتعقب الجيش الروماني جيش المسلمين ويوقع به خسائر باهظة ، ولا سيما وان جيش المسلمين يقاتل بعيدا عن أرضه بما يقرب من ألف كيلو ، وطريقه محفوف بأعداء المسلمين من القبائل المشركة المعادية للمسلمين أو الموالية للروم ، ولذلك فان جيش المسلمين كان عرضة لأن يتخطفه أعداؤه إذا ما تفرقت صفوفه وتشتت شمله ، ولذلك كله فان الموقف كان بالغ الصعوبة ، وان ما فعله خالد من الانسحاب المنظم والتخلص من مطاردة الرومان يعد في الحسابات العسكرية نصرا كبيرا وكشفا للغمة التي حاقت بالمسلمين ، وليس أدل على ذلك من إشادة الرسول -ﷺ- ببطولة خالد واكرامه بلقب (سيف الله) وقال : «اللهم انه سيف من سيوفك أنت تنصره»(٢٦) ، ولما علم النبي بأخذ خالد الراية قال : «الآنَ حَمِيَ

الوطيسْ»(٢٧) كناية عن اشتداد القتال وتوحيد صفوف المقاتلين بعد تفرق ، فما الذي فعله خالد ، وكيف استطاع أن يوقف هجمات الرومان ، ويؤمن للمسلمين انسحابا منظما ، ويحفظه من القتل والهلاك .

رأى خالد ببصيرته الحربية أن جيش المسلمين لا يمكن أن يصمد لجيش الروم ومن معهم من القبائل العربية ، وأن الأيام الستة التي مضت في قتال الروم قد أنهكت الجيش وفرقته حتى (لم أر اثنين جميعا) كما يقول أبو عامر(٢٨) ، وكانت خطة خالد في الانسحاب قد قامت على مراحل :

١ - اعادة تنظيم صفوف المسلمين وتعبتهم

٢ - تضليل العدو بأن قوات جديدة جاءت مددا للمسلمين

٣ - صدم العدو بهجمات جريئة ناجحة

٤ - الانسحاب المنظم دون خسائر .

وقد أمر خالد بعض الفصائل أن تنسحب في الليل وتكمن بعيدا خلف الجيش الاسلامي ، ثم تظهر عند الصباح من كل جانب مثيرة الغبار ليظن أن مددا كبيرا قد جاءهم ، وصبح جيش الرومان وهم يرون تعبئة جديدة ، بأن جعل ميمنة الجيش ميسرة ، وميسرته ميمنته ، وقدم وأخر في القلب ، فرأى الجيش الروماني وجوها لم يروها قبل ، فأوقع الرعب في نفوسهم بأن جيشا جديدا قد جاء مددا للمسلمين وبهذه الخدعة الحربية هز معنويات العدو وأوقع الرعب في قلوبهم . ثم هجم خالد بجيشه فأوقع بالعدو خسائر كبيرة ، ويصف الواقدي خطة خالد ونتائجها قال : «لما قتل ابن رواحة مساء ، بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرته ، وميسرته ميمنته ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم ، وقالوا قد جاءهم مدد ، فرعبوا فانكشفوا منهزمين فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم»(٢٩) ، ويصف ابن سعد انتصار المسلمين بقوله : «ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على

القـوم فهـزمهم أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا»(٣٠) ، وكان بلاء خالد شديدا ، ولا أدل على شدة المعركة وحسن البلاء من أن تسعة سيوف تتكسر في يد خالد ، وروي عن خالد قوله : «اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، وما ثبت في يدي الا صفيحة يمانية»(٣١) . ثم بدأت عملية الانسحاب المنتظمة ، واستطاع خالد بدهائه العسكري أن يؤمن للجيش انسحابا آمنا ، دون أن يلحق بالجيش خسائر كما هو المعتاد في حالات الانسحاب ، والذي يلفت النظر أن الجيش الروماني على الرغم من قوته وكثرته ووفرة فرسانه ، لم يتعقب جيش المسلمين ، وهناك احتمالات : منها أن الرومان ربما فكروا أن وراء هذا الانسحاب كمينا أو خدعة حربية للايقاع بهم ، أو أن الرومان ظنوا أن جيش المسلمين جاءهم مدد فما أرادوا التورط في استمرار حرب لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم فيها قبل مجيء المدد ، فكيف بعد وصوله ، كما يظنون(٣٢) .

وكـانت أخبـار الجيش المقاتل ومقتل القادة وتسلم خالد قيادة الجيش قد بلغت المسلمين في المدينة ، فظنوا أن المسلمين قد فروا وانهزموا ، وكان رسول الله -ﷺ- قد صعد المنبر وأخبر المسلمين خبر الجيش الاسلامي ، واستشهاد القـادة الثـلاثة واحدا بعد الآخر ، فاستغفر لهم ، وأثنى على خالد بن الوليد قائلا : «اللهم إنه سيف من سيوفك أنت تنصره» فسمي خالد من ذلك اليوم (سيف الله)(٣٣) . ولكن بعض المسلمـين في المـدينـة ظنـوا بالجيش الجبن والفرار ، فخرجوا لاستقبال الجيش العائد إلى ضواحي المدينة بالجرف ، فكان فريق منهم يحثون في وجوه المقاتلين التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم في سبيل الله ، وكان رسول الله -ﷺ- يرد عليهم بقوله : «ليسوا بفرار ولكنهم كُرَّار إن شاء الله»(٣٤) . وما فتىء بعض المسلمين يلوم ويقرع الجيش العائد ، حتى اضطر بعض المقاتلين أن يلزموا بيتهم فلا يخرجوا منه خوفا من تقريع الناس ،

ففي خبر سلمة بن هشام بن المغيرة أحد جنود مؤتة ، ان امرأته دخلت على أم سلمة زوج النبي -ﷺ- ، فقالت أم سلمة : «مالي لا أرى سلمة بن هشام ، آشتكى شيئا ، قالت امرأته : لا والله ، ولكنه لا يستطيع الخروج ، إذا خرج صاحوا به وبأصحابه : يا فرار ، أفررتم في سبيل الله ، حتى قعد في البيت ، فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله -ﷺ- فقال : بل هم الكُرَّار في سبيل الله فليخرج ، فخرج»(٣٥) .

ولا شك أن المسلمين قد حزنوا حزنا شديدا لمقتل من قتل من المسلمين ، وبخاصة أمراء الجيش الثلاثة ، وكان النبي -ﷺ- يحب جعفر بن أبي طالب حبا شديدا ، وكان جعفر أقرب الناس إلى أخلاق الرسول -ﷺ- وشبها به ، وكان يقول له في عمرة القضاء : «أشبهت خَلقي وخُلقي»(٣٦) ، وفرح به عند عودته بالمهاجرين من الحبشة ، حتى أن الرسول -ﷺ- قام إليه وقبل عينيه ، وحجل فرحا بقدومه(٣٧) ، وقد بكى النبي -ﷺ- حزنا على جعفر وواسى زوجته وأولاده ، وكان حين يسمع صوت البواكي يقول : «على مثل جعفر فلتبك الباكية»(٣٨) .

صورة مؤتة في الشعر :

الشعر في كثير من أحواله وثيقة تاريخية وأدبية ولغوية ونفسية ، والشعر في مؤتة يصور الأحوال ، ويحكي الأحداث ، ويسجل دقائق قد تغيب عن ذهن المؤرخين ويلقي ضوءا على بعض التفصيلات التي لا بد منها لفهم أبعاد المعركة وجوانبها ونتائجها ، ويلقي ظلالا نفسية تعين على فهم واقع الحال وما كان يختلج في نفوس الشعراء من عواطف الرهبة والخوف والحذر ، والنصر والفجيعة أيضا . وكان الشعر يصاحب المعركة ويصورها خطوة خطوة ، على قدر ما أتيح للشاعر من إلمام بالمعركة ورؤيته لها .

وكان شعر عبد الله بن رواحة أهم الأشعار التي جاءت عن المعركة وصورتها وصورت نفسية قائلها ، لأنه شعر شاعر شهد المعركة وخاضها وكان أحد قوادها ، وعبد الله بن رواحة أحد شعراء رسول الله -ﷺ- الثلاثة في المدينة : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله رجل شديد الايمان مرهف الحس ، وشعره سهل سلس مثل الحياة الاسلامية وأحداثها منذ الهجرة المباركة حتى مقتله شهيدا .

وأول ما يلاحظ في شعر ابن رواحة أنه كان رقيق القلب سريع البكاء خشية الموت أو خشية النار ، وقيل أنه حين تجهز الجيش وودعهم المسلمون ، بكى فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ، فقال : والله ما بي حب الدنيا ، ولا صبابة بكم ، ولكني سمعت رسول الله -ﷺ- يقرأ آية من كتاب الله عزوجل يذكر فيها النار (وإنْ منكمْ إلا واردُها كان على ربِّك حتماً مقضياً) ، فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود»(٣٩) ، ثم إن القوم تهيئوا للخروج فأتى عبد الله يودع رسول الله -ﷺ- ويمدحه ويذكر فضله ونبوته(٤٠) :

فثبَّت اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ ... تَثْبيتَ موسى ونَصْراً كالذي نُصروا
إني تفرست فيك الخير نافلةً ... اللهُ يعلم أني ثابتُ البَصَرِ
أنتَ الرسولُ فمَنْ يُحْرَمْ نوافِلَهُ ... والوجْهَ منه فقد أزرى به القَدَرُ

وحين تهيأ المسلمون للتوجه ناحية المعركة ووداع أهليهم ، كان عبد الله يذكر المصير وما قد يصيبه من قتل ويتمنى الشهادة في سبيل الله(٤١) .

لكنَّني أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فَرْعٍ تقذفُ الزَّبَدا
أو طعنةً بيدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بحَرْبةٍ تُنْفِذُ الأحشاءَ والكَبِدا
حتى يُقالَ إذا مَرُّوا على جَدثي ... أرشدَهُ اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا

وحين بلغ المسلمون معان ورأوا كثرة جيش العدو وعدنه ، وتشاور الناس في الأمر وكان رأي ابن رواحة أن يغامروا في قتال المشركين طلبا لاحدى الحسنيين النصر أو الشهادة فقال هذه الأبيات من قصيدة يتمثل فيها الاعتزاز بقوة المسلمين وصلابة ايمانهم ووثوقهم بالنصر(٤٢) :

جلَبْنَا الخيلَ من أجا وفَرْعٍ ... تُغَرُّ من الحَشيش لها العُكُومُ
حذَوناها من الصَّوَّان سِبْتاً ... أزلَّ كأنَّ صفحَتَه أديمُ
أقامتْ ليلتَيْنِ على مَعَانٍ ... فأعْقَبَ بعد فترتِها جُمُومُ
فَرُحْنا والجيادُ مسوَّماتٌ ... تنفَّسُ في مناخِرها السَّمُومُ
فلا وأبى مآبَ لَنَأتِيَنْهَا ... وإنْ كانت بها عَرَبٌ وروم
فعَبَّأنا أعِنَّتَها فجاءتْ ... عَوابسَ والغُبارُ لها بَرِيمُ

وفي هذا الشعر إشارات مفيدة لم تذكرها المصادر وهي القبائل التي تكون الجيش الاسلامي من البادية حيث ذكر مواضعها في جبل أجأ وهو جبل طيء ، وجبل الفرع وهو أطول جبل بأجأ وأوسطه كما يقول ياقوت (الفرع) ، وذكر أماكن تجمع المسلمين في معان ، وأماكن تجمع المشركين من عرب وروم في مآب .

وكانت شاعرية عبد الله بن رواحة تتدفق بالشعر وهو في المعركة أو في طريقه إليها ، يسجل خواطره وخوالجه النفسية ، روى زيد بن أرقم ، وكان معه في طريقه إلى مؤتة قال : كنت يتيما لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج في سفره ذلك مردفي على حقيبة رحله ، فوالله انه ليسير ليلتئذ سمعته يقول(٤٣) :

إذا أدَّيْتِني وحملتِ رَحْلي ... مسيرةَ أربعٍ بعدَ الحِسَاءِ
فشأنُك أنعُمٌ وخلاكِ ذَمٌّ ... ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمونَ وغادَروني ... بأرضِ الشامِ مُشْتَهِي الثَّوَاءِ
وردَّكِ كل ذي نسبٍ قريبٍ ... إلى الرحمنِ مُنْقطعَ الإخاءِ
هنالك لا أبالي طَلَّعَ بَعْلٍ ... ولا نَخْلٍ أسافِلُها رِوَاءِ

قال : فلما سمعتهن منه بكيت ، فخفقني بالدرة وقال : ما عليك يا لكع ، أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شعبتي الرحل .

وحين يكون الصدام ويشتد وقع القتال ، ويستشهد زيد ويستشهد جعفر ، يكون ابن رواحة هو القائد المسؤول عن أهوال القتال وادارة دفته ، فهو أمام الموت وجها لوجه ، فيرى جلال الموت ورهبته فيتخوف ويتردد ، ويتصارع في نفسه حب البقاء وسمو الشهادة ، فيتمالك ويحرض نفسه على الصبر ، ويحاور نفسه ويزين لها الشهادة في قوله متأسيا بصاحبيه(٤٤) :

يا نفسُ إن لم تُقْتَلي تموتي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ
وما تمنَّيتِ فقد أُعْطِيتِ ... إنْ تفعلي فِعْلَهما هُديتِ

ويبدو أن نفسه لم تطاوعه وكانت تتشبث بالحياة ، فكان يعاتبها على التردد ويحثها على الإقدام ويكرهها على النزال ، ويقسم عليها أن تطاوعه ، وحديث النفس هذا هو أصدق ما صوره الشعراء وأروعه(٤٥) :

أقسَمْتُ يا نفسُ لَتَنزِلنَّهْ ... طائعةً أو لَتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أجْلَبَ الناسُ وشدوا الرَّنَّةْ ... مالي أراكِ تكرهينَ الجَنَّةْ
قد طالَ ما قد كنتِ مُطْمئِنَّهْ ... هل أنتِ إلاَّ نُطْفَةٌ في شَنَّةْ

ثم نزل عن فرسه ، وأتاه ابن عم له بعرق من لحم ، فقال له : شد بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت ، فأخذه فانتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر فقال في نفسه : وأنت في الدنيا ، ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قتل ولحق بصاحبيه شهيدا(٤٦) .

ومما جاء من شعر المعركة مصورا نفسية قائله وثقته بنفسه ودينه وقوته وتصميمه على الشهادة ، شعر جعفر بن أبي طالب ، ولم يكن جعفر شاعرا ،

ولكن المعركة فتقت لسانه ، وكان جعفر بن أبي طالب ثاني القادة الشهداء ، قد أبلى بلاء عظيما يبلغ حد الأسطورة ، فقد قاد الجند ورمى بنفسه وسط المعركة ، فلما أحاط به القوم ، نزل عن فرسه ثم عقرها وقاتل أشد قتال وهو يستبسل وينظر إلى الجنة دون تردد وينشد(٤٧) :

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقترابُها طَيِّبَةً وباردا شرابُها
والرومُ رومٌ قد دَنَا عذابُها كافرةً بعيدةً أنسابُها
عليَّ إذْ لاقيتُها ضِرابُها

وتتعالى في جنبات الجيش لاسلامي صيحات الشعراء حين يتحقق نصر أو ينكأون العدو ، ومن هذه الصيحات صوت قطبة بن قتادة العذرى أحد فرسان المسلمين وكان على ميمنة الجيش ، وقد حمل على مالك بن رافلة(٤٨) أحد قادة المشركين المحالفين للروم فقتله ، فقال قطبة يصور هذا المشهد وما تبع ذلك من سبي نساء المشركين في موضع بعينه(٤٩) :

طعنتُ ابنَ رافلة بن الإرا ش برُمحٍ مضَى فيه ثم انْحَطَمْ
ضربْتُ على جِيدِهِ ضَرْبَةً فمالَ كما مالَ غصنُ السَّلَمْ
وسُقْنَا نساءَ بني عَمِّهِ غداةَ رقُوقَيْنِ سَوْقَ النَّعَمْ

ويكشف شعر قيس بن المسحر عن اختلاف القوم بعد مقتل ابن رواحة ، فقد نزلت الهزيمة وتشتت الناس ، ونظروا فيمن يقودهم حتى اتفقوا على خالد بن الوليد الذي أنقذ الجيش من هلاك محقق ، وفي هذا الشعر صورة لنفسية المقاتل الذي رأى الهزيمة محيقة بهم فساورته الشكوك ، وغمرته الحيرة ، حتى ثاب إلى رشده ووثق بحنكة خالد وصواب رأيه وسداد خطته ، ويقول قيس لائما نفسه على ما بدر منه من سوء الظن(٥٠) :

فوالله لا تَنْفَكُّ نفسي تلُومُني على مَوْقِفي والخيلُ قابعةً قُبْلُ
وقفْتُ بها لا مُسْتَجِيرا فنافِذا ولا مانِعاً مَنْ كان حُمَّ له القَتْلُ

على أنَّني آسَيْتُ نفسي بخـالـدٍ ... ألا خالـدٌ في القـومِ ليس له مِثْلُ
وجـاشتْ إليَّ النفسُ من نحـو جَعْفَرٍ ... بمُؤْتَـةَ إذْ لا ينفـعُ النـابـلَ النَّبْلُ
وضَمَّ إلينَـا حَجْـزَتَيْهم كليهِـما ... مهـاجِـرةٌ لا مُشركـون ولا عُزْلُ

وحين عاد الجيش إلى المدينة وعلم الناس بتفصيلات الأحداث حزنوا على مقتل القادة وبقية الشهداء ، فبكوهم وناحوا عليهم ، وكان أبرز الشعراء الذين رثو قتلى مؤتة حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وتعد قصيدة حسان الرائية التي أولها :

تأوبـني ليـل بيـشـرب أعسر ... وَهَـمٌّ إذا ما نَوَّمَ النـاس مُسْهِـرُ

من خيرة المراثي الاسلامية وأشدها حزنا ووقعا في نفوس المسلمين ، فهو يعدد مآثر القتلى ومصاب المسلمين بهم ، ويسمي الشهداء القادة ويخص جعفرا بأجود الرثاء ويسميه بذي الجناحين ، وهي تسمية سمعها من رسول الله -ﷺ- حين أخبر أن جعفرا جعلت له جناحان مكان يديه المقطوعتين ، ويحكي شجاعة جعفر وعظيم بلائه في الحرب وكيف تكاثرت عليه الرماح حتى استشهد ، ويثني بذكر أهل مؤتة وقادتهم في مثل قوله(٥١) :

فلا يُبْعِـدَنَّ اللهُ قتـلَى تتـابَعُـوا ... بمُؤْتَـةَ منهم ذو الجَنـاحـينِ جعفرُ
وزيـدٌ وعبـدُ اللهِ حينَ تَتَـابَعُـوا ... جميـعـا وأسبـابُ المـنيَّـةِ تَخْطِرُ
غداةَ مضَـوا بالمؤمنـينَ يقـودُهم ... إلى المـوت ميمـونُ النَّقيبـةِ أزْهَـرُ
أغـرَّ كضوءِ البدرِ من آلِ هاشمٍ ... أبيٌّ إذا سِيْـمَ الـظُّلامَـةَ مجْسَرُ
فطاعـنَ حتـى مالَ غيرَ مُوَسَّـدٍ ... لُعـترَكٍ فيـه قَنـاً مُتَـكَسِّرُ
فصـار مع المُسْتَشْهَـدِينَ ثوابُـهُ ... جِنـانٌ وملتفُّ الحَـدائقِ أخْضَرُ

وقد استعوب حسان أحاديث رسول الله -ﷺ- وثناؤه على جعفر إذ كان يقول له : «أشبهت خَلقي وخُلُقي»(٥٢) ، فحسان يحكي هذه الصفة ويمدح جعفر

وآل هاشم ، ويذكر مكانتهم في الاسلام وجهادهم فيه ويعدد رجالهم ويذكر فضلهم فهم (أولياء الله) وفيهم (الكتاب المطهر) ، يقول حسان :

وكُنَّا نرى في جعفرٍ من محمدٍ ... وفاءً وأمْرا خازما حين يأْمُرُ
فما زالَ في الإسلام من آلِ هاشمٍ ... دعائمُ عزّ لا يَزُلْنَ ومَفْخَرُ
هُمُ جبل الإسلام والناسُ حولَهم ... رِضَامٌ إلى طَوْدٍ يروق ويَقْهَرُ
بهَالِيلُ منهم جَعْفَرُ وابنُ أمِّهِ ... عَلِيٌّ ومنهمْ أحمدُ المتخَيَّرُ
وحمزةُ والعباسُ منهمْ ومنهُمُ ... عَقَيلُ وماءُ العُودِ من حيثُ يُعْصَرُ
بهم تُفرَجُ الَّلأواءُ في كل مأزقٍ ... عَمَاسٍ إذا ما ضاقَ بالناسِ مصدَرُ
هُمُ أولياءُ اللهِ أنزَلَ حُكْمَهُ ... عليهم وفيهم ذا الكتابُ المُطَهَّرُ

ولحسان قصيدتان أخريان في شهداء مؤتة ، أفرد واحدة منهما في رثاء جعفر بن أبي طالب وبيان خصاله وشجاعته وكرمه وفضله ومكانه من رسول الله -ﷺ- وهي التي أولها(٥٣) :

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر ... حِبِّ النبي على البرية كلها

وأفرد الثانية لرثاء زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، ويلاحظ من هذه القصيدة أن حسان يحكي ما وطن في نفوس الناس من أن المسلمين فروا يوم مؤتة (يوم راحوا في وقعة التغوير) ، ويعزز هذا المعنى بيت آخر يبين أن المسلمين فروا وغادروا هنالك زيدا صريعا (حين راحو وغادروا ثم زيدا)(٥٤) وفي رواية الديوان(٥٥) (حين ولوا وغادروا ثم زيدا) ، وفي كلمة (ولوا) دلالة على التوبيخ بالهزيمة ، وما كان حسان قد حضر مؤتة ، وما عرف حالها وبلاء المسلمين فيها ، ولكنه يحكي رأي الناس الذين استقبلوا الجيش ساخطين وموبخين (يا فرار فررتم في سبيل الله) ، وفي الأبيات بيان لمنزلة زيد بن حارثة من نفس رسول الله -ﷺ- فهو حبه ، ثم يثني برثاء عبد الله بن رواحة السيد الخزرجي

الكريم ، يقول حسان(٥٦) :

عينِ جودي بدَمْعِكِ المَنْزورِ ... وأذكُري في الرَّخاءِ أهلَ القُبورِ
واذكري مُؤْتَةً وما كان فيها ... يومَ راحوا في وَقْعةِ التَّغْويرِ
حين راحوا وغادروا ثَمَّ زيداً ... نِعْمَ مأوى الضَّريكِ والمَأْسُورِ
حِبَّ خَيْرِ الأنام طُرَّاً جميعاً ... سَيِّدَ الناسِ حُبُّهُ في الصُّدورِ

إلى آخر أبيات حسان الحزينة .

وكما بكى حسان بن ثابت قتلى مؤتة ، بكاهم كعب بن مالك بقصيدة تحفل بالمعاني الإسلامية ، صور كعب حزنه على الشهداء الثلاثة من قادة المسلمين ، وصور صبرهم وعظيم بلائهم في الحرب ، وحرصهم على النصر ، ووقف عند استشهاد جعفر بن أبي طالب وكيف كانت شهادته قدوة للمسلمين في الصبر وحسن البلاء والإقدام ، ثم عرج على بني هاشم ، يثني عليهم ويذكر فضلهم وشرفهم في العرب ومكانتهم في الإسلام ، وموضع رسول الله ﷺ فيهم ، وتبدأ قصيدة كعب بصورة نفسية دقيقة معبرة يتحدث فيها عن حزنه وسهاده وتقلبه على جوانبه أرقاً يرعى النجوم كأن في أحشائه لهيب نار ، والقصيدة في سبعة عشر بيتاً وهي نفيسة في بابها نقتطف منها هذه الأبيات : (٥٧)

نام العُيونُ ودَمْعُ عينك يَهْمُلُ ... سَحّاً كما وكَفَ الطِّبَابُ المُخْضَلُ
في ليلةٍ ورَدَت عليَّ هُمومُها ... طَوْرا أحِنُّ وتارَةً أتَمَلْمَلُ
واعْتَادني حُزْنٌ فبتُّ كأنَّني ... ببناتِ نَعْشٍ والسِّماكِ مُوكَّلُ
وكأنَّما بينَ الجَوانحِ والحَشَىٰ ... مِمَّا تأوَّبَني شِهابٌ مُدْخَلُ
وَجْداً على النَّفَرِ الذينَ تتابعُوا ... يوما بمُؤتةَ أُسْنِدوا لم يُنْقَلوا
صَلَى الالهُ عليهمُ من فِتْيَةٍ ... وسَقَى عظامَهُمُ الغَمامُ المُسْبِلُ
صَبَروا بمؤتَةَ للإلهِ نفوسَهُمْ ... حَذَرَ الرَّدَىٰ ومخافةً أنْ يَنْكُلوا

إلى آخر أبيات كعب التي تفيض بالحزن والمعاني الإسلامية .

وهناك أبيات ثلاثة قالهن شاعر من المسلمين ممن حضر مؤتة ، ورجع أسفاً حزيناً يبكي القادة الشهداء الذين فارقهم ولم ينل ما نالوه من فضل الشهادة وفي البيت الأخير إشارة إلى شدة الحرب وكراهة الموت(٥٨) :

كفَىٰ حزنـاً أنِّي رَجَعْتُ وجَعْفـرٌ ... وزيـدٌ وعبـدُ اللهِ في رَمْسِ أقْـبُرِ
قَضَـوْا نحْبهَم لما مَضَـوْا لسبيلِهِمْ ... وخُـلِّفْتُ للبَـلْوَى مع المتـغَـبِّرِ
ثلاثـةُ رَهْطٍ قُدِّمُـوا فتقَـدَّمُـوا ... إلى وِرْدِ مَكْـروهٍ من الموتِ أحمرِ

والملاحظ في شعر مؤتة أنه يكاد يخلو من ذكر أسماء من قتل من المسلمين غير القادة الشهداء الثلاثة ، وليس فيه بيان لعدد من قتل من المسلمين أو المشركين ، ولعل ذلك راجع إلى أن مصاب المسلمين بالقادة كان كبيراً ، وكان هذا الشعر قد قاله شعراء المدينة ، فهم يبكون رؤوس القوم وأعيان المسلمين ، وليس بين أيدينا شيء من الشعر الذي قالته القبائل المسلمة التي شاركت في القتال ، ولذلك جاء صدى مؤتة مقتصراً على شعراء المدينة والقادة المسلمين دون سواهم .

وبعـد فالشعـر في مؤتة يصور المعركة ويحكي أحداثها ، ويبكي قتلاها ، ويقف وقفة متأنية عند مقتل قادة المسلمين الشهداء الثلاثة ، فيبكيهم ويذكر صفاتهم وحسن بلائهم ، ويقف وقفة خاصة عند مقتل جعفر بن أبي طالب هذا المقتل الأسطوري والمشهد البطولي الذي عز مثيله ، فيبكيه الشعر أحر بكاء ، ويتغنى ببطولته وصبره ، ويتمدح بنسبه وبشبهه برسول الله ﷺ ، ويحكي الشعر كذلك ما وطن في أذهان الناس من أن الجيش الإسلامي قد فر ، وذلك أنهم قد استعظموا أن يقتل قادة المسلمين الثلاثة واحداً إثر الآخر ، فظنوا أن المسلمين هزموا أمام جيش العدو .

تأملات في معركة مؤتـة :

تكاد المصادر تجمع على أن جيش المسلمين كان ثلاثة آلاف مقاتل ، وأن

جيش الروم وأحلافهم من العرب الموالية كانوا مائتي ألف مقاتل ، لكل فريق مائـة ألف ، ومعنى هذا أن كل مسلم يقـابل سبعين مقاتلاً من جيش العدو تقريباً ، ثم إن المصادر تذكر أيضاً(٥٩) أن المسلمين انهزموا أسوأ هزيمة ، حتى لم ير إثنان جميعاً قط ، حتى تسلم خالد اللواء فأنقذ الموقف ، وقد دامت هذه المعركة الرهيبة سبعة أيام وتكسرت في يد خالد تسعة أسياف ، وهزم بعدها الروم « فقتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم »(٦٠) ، والنتيجة المنطقية أن تكون هناك مقتلة عظيمة بين الفريقين ، وبخاصة في صفوف المسلمين القلة أمام الكثرة الكاثرة ، ولابد أن تبلغ تلك المقتلة المئات إن لم تكن الألوف ، بينما تذكر المصادر من قتلى الرومان وحلفائهم رجلين فقط هما مالك بن رافلة (أو زافلة) وفارس روماني قتله أحد اليمانيين ، أما قتلى المسلمين فهم في رواية الواقدي(٦١) ثمانية ، أربعة من المهاجرين وأربعة من الأنصار ، وفي رواية ابن هشام(٦٢) إثنا عشر شهيداً ، أربعة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، وشهداء المهاجرين هم : ١ - جعفر بن أبي طالب ، ٢ - زيد بن حارثـة ، ٣ - مسعـود بن الأسـود بن حارثـة العـدوي ، ٤ - وهب بن سعـد بن أبي سرح العامري . أما شهداء الأنصار فهم : ١ - عبد الله بن رواحة ، ٢ - عباد بن قيس ، ٣ - سراقة بن عمرو بن عقبة ، ٤ - أبو كليب بن عمرو ، ٥ - جابر بن عمرو بن زيد ، ٦ - عمرو بن سعد ، ٧ - عامر بن سعد ، ٨ - الحارث بن النعمان بن أساف ، والثلاثة الأول من الخزرج ، والخمسة الباقية من الأوس .

فهل يعقل أن يتناسب عدد القتلى مع معركة رهيبة دامت سبعة أيام ، ونحن هنا أمام جملة احتمالات : أولها أن تكون أعداد المشركين مبالغاً فيها ، وكذلك أعداد المسلمين ، وثانيها أن عدم معرفة قتلى الرومان وإغفال المصادر لها ، أمر له ما يبرره ، وهو عدم معرفة المسلمين بأشخاص القتلى ، ولكن قتلى القبائل العـربية المشركة لا يمكن تجاهلهم ، أما قتلى المسلمين فينبغي أن يكون كبيراً

جداً ، والاحتمال الوارد هو أن المصادر اكتفت بذكر أعلام المهاجرين والأنصار وسكتت عن قتلى القبائل العربية المسلمة ، لأنهم من الأعراب الحديثي عهد بالإسلام ، ولم يستقص المؤرخون أسماؤهم ولا أعدادهم .

وقد سبق لابن كثير(٦٣) أن وقف متعجباً من هول المعركة وقلة عدد القتلى من الفريقين ، فقال معلقاً بعد أن ذكر أسماء القتلى الإثنى عشر : « وهذا عظيم جداً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله عدتها ثلاثة آلاف ، وأخرى كافرة وعدتها مائتا ألف مقاتل ، من الروم مائة ألف ومن نصارى العرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصاولون ، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا أثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين خلق كثيراً ، هذا خالد وحده يقول : لقد اندقت في يدي يومئذ تسعة أسياف وما صبرت في يدي إلا صفحة يمانية ، فماذا ترى قد قتل خالد بهذه الأسياف كلها ، دع غيره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن » ، ويعلل ابن كثير ذلك بقوله : « وهذا مما يدخل في قوله تعالى (قد كان لكم آيةٌ في فِئتَينِ التقتا فِئةٌ تقاتلُ في سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونَهُمْ مِثْلَيهِمْ رأيَ العينِ والله يؤيِّدُ بنصره من يشاءُ إنَّ في ذلك لَعِبرةً لأولى الأبصار) »(٦٤) .

وإذا استأنسنا بالفئتين المؤمنة والمشركة يوم بدر نجد عدد المسلمين كان (٣١٤) ثلاث مائة وأربعة عشر مقاتلاً منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين ومائة وسبعون من الأنصار ، وقد قتل منهم أربعة عشر شهيداً ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار(٦٥) ، أما المشركون فقد بلغ قتلاهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً(٦٦) ، وهي نسبة صحيحة معقولة ، إذ حرص المؤرخون على تسجيل جرائد بأسمائهم ، أما في أحد فقد كان شهداء المسلمين سبعين ، أما قتلى المشركين فكانوا اثنين وعشرين رجلاً(٦٧) وبمقارنة هذه الأعداد من القتلى نسبة

لعدد من شهد المعارك تتضح المبالغة في أعداد من شهد وقعة مؤتة من الجانبين ، نسبة لقلة من قتل من الجانبين أيضاً .

وبعد فما أثر مؤتة وما نتائجها ، مهما كانت وجهات النظر في أمر هذه الغزوة من أنها محنة نزلت بالمسلمين ، أو أنها مفاجأة لقيها الجيش الإسلامي من كثرة ما حشد لهم العدو ، وسواء أكان المسلمون قد انتصروا ، أم أنهم قد انكشفوا ، فإنه كان لهذه الغزوة نتائج محمودة منها :

١ - أنها أعطت الروم درساً لم ينسوه ، فبعد أن كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم قبائل غازية غايتها السلب والنهب ، فانهم صاروا يحسبون للمسلمين حسابا ، فعلى الرغم من قلة عدد المسلمين فقد استطاعوا أن يقاتلوا جيشا كبيرا منظما ويوقعوا به خسائر جسيمة ، ولم يستطع جيش الروم القضاء على هذا الجيش الذي وطأ أرضهم وأذل كبرياءهم .

٢ - أن المسلمين بعد هذه المعركة صاروا يتطلعون لفتح الشام ، وان هذه المعركة كانت بداية المسيرة لفتح الشام ، ففي السنة التالية ، وهي السنة التاسعة من الهجرة قاد النبي -ﷺ- بنفسه جيشا وتوجه إلى تبوك ووطأ أرض الشام وأوقع الرعب في قلب العدو ثم عاد إلى المدينة ، وفي السنة الحادية عشرة جهز النبي -ﷺ- جيش أسامة بن زيد وهيأه للتوجه إلى الشام ومحاربة الروم ، إلا أن وفاة رسول الله -ﷺ- أرجأت تحرك الجيش ، فأتم أبو بكر تسيير جيش أسامة ، وهكذا ترك رسول الله ﷺ لخلفائه خطة واضحة المعالم لفتح الشام(٦٨) .

٣ - أما القبائل العربية الموالية للروم ، فقد نظرت إلى جيش المسلمين نظرة إعجاب ، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الإسلام يتسرب إلى هذه القبائل ،

وكان أحد زعمائهم وقادتهم وهو فروة بن عمر الجذامي قد أعلن إسلامه ، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وحاول هرقل أن يرده إلى النصرانية فلم يفلح ، فأقدم على قتله ، وكان من ذلك أيضا أن الإسلام ازداد انتشاراً بين القبائل النجدية المتاخمة للعراق والشام(٦٩) ، ودخل في الإسلام في هذه الفترة أعداد كبيرة من بني سليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء لليهود حتى نكب اليهود في خيبر ، وكذلك دخلت أفواج من عبس وذبيان وفزارة ، وكانت معركة مؤتة سببا في استتباب الأمر للمسلمين في شمالي المدينة ، وفي ازدياد الإسلام عزة ومنعة(٧٠) .

هوامش البحث :

(١) مغازي الواقدي ٢/٧٥٢ ، طبقات ابن سعد ٢/١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٦ ، مغازي الواقدي ٢/٧٥٥ ، الإصابة ١/٢٩٩ ، وانظر : حياة محمد - هيكل ص ٤٠٥ .

(٣) مغازي الواقدي ٢/٧٥٦ ، والجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام (ياقوت : الجرف)

(٤) تاريخ الطبري ٣/٣٦ ، مغازي الواقدي ٢/٧٥٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ق ٢/٣٧٣ ، مغازي الواقدي ٢/٧٥٦ ، البداية والنهاية ٤/٢٤١ ، تاريخ ابن الأثير ٢/٢٣٤ .

(٦) مغازي الواقدي ٢/٧٥٧ - ٧٥٨ .

(٧) مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء . (ياقوت : مآب)

(٨) مغازي الواقدي ٢/٧٦٠ ، الطبري ٣/٣٧ ، ابن الأثير ٢/٢٣٥ .

(٩) وقيل : بقيادة أخيه تيودور .

(١٠) سيرة ابن هشام ٢/٣٧٥ ، ابن الأثير ٢/٢٣٥ .

(١١) مغازي الواقدي ٢/٧٦٠ ، الطبري ٣/٣٧ .

(١٢) ويقال : عباية بن مالك .

(١٣) سيرة ابن هشام ٤/١٧ .

(١٤) مغازي الواقدي ٢/٧٦٠ ، امتاع الأسماع ١/٣٤٧ ، برق : دهش فلم يبصر من فزع وحيرة .

(١٥) أي سال دمه فمات .

(١٦) سيرة ابن هشام ٢/٣٧٨ ، الطبري ٣/٣٩ .

(١٧) طبقات ابن سعد ٢/١٢٩ .

(١٨) مغازي الواقدي ٢/٧٦١ ، قيل : ثلاثون ، وقيل ستون ، واثنتان وستون .

(١٩) سيرة ابن هشام ٢/٣٧٨ .

(٢٠) طبقات ابن سعد ٢/١٢٩ ، البداية والنهاية ٤/٢٤٥ .

(٢١) البداية والنهاية ٢/٢٤٦ .

(٢٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٧٩ .

(٢٣) مغازي الواقدي ٢/٧٦٣ ، سيرة ابن هشام ٤/٢٣ ، البداية والنهاية ٤/٢٥٠ .

(٢٤) طبقات ابن سعد ٢/١٣٠ .

(٢٥) السيرة ٢/٢٧٩ - ٢٨٠ ، مغازي الواقدي ٢/٧٦٣ ، ابن الأثير ٢/٢٣٨ .

(٢٦) طبقات ابن سعد ٧/٣٩٥ ، البداية والنهاية ٤/٢٤٦ .

(٢٧) مغازي الواقدي ٢/٧٦٤ ، البداية والنهاية ٤/٢٤٧ ، طبقات ابن سعد ٢/١٢٩ .

(٢٨) ابن سعد ٢/١٣٠ .

(٢٩) الواقدي ٢/٧٦٤ .

(٣٠) ابن سعد ٢/١٣٠ .

(٣١) ابن سعد ٧/٣٩٥ ، البداية والنهاية ٤/٢٤٦ ، الإصابة ٢/٩٩ .

(٣٢) حياة محمد ص ٤٠٨ .

(٣٣) البداية والنهاية ٤/٢٤٦ .

(٣٤) ابن الأثير ٢/٢٣٨ ، الطبري ٢/٣٢٣ ، الواقدي ٢/٧٦٥ ، السيرة ٢/٣٨٢ .

(٣٥) الواقدي ٢/٧٦٥ ، السيرة ٢/٣٨٣ .

(٣٦) البداية والنهاية ٤/٢٥٦ .

(٣٧) السابق والصفحة .

(٣٨) الواقدي ٢/٧٦٦ .

(٣٩) السيرة ٢/٣٧٣ - ٣٧٤ ، والآية ٧١ من سورة مريم .

(٤٠) السيرة ٢/٣٧٤ .

(٤١) السيرة ٢/٣٧٤ ، ابن الأثير ٢/٢٣٥ .

(٤٢) السيرة ٢/٣٧٥ .

(٤٣) الواقدي ٢/٧٥٩ ، ابن الأثير ٢/٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٤٤) السيرة ٢/٣٧٩ ، ابن الأثير ٢/٢٣٧ .

(٤٥) السيرة ٢/٣٧٩ ، ابن الأثير ٢/٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٤٦) السيرة ٢/٣٧٩ ، ابن الأثير ٢/٢٣٧ .

(٤٧) السيرة ٢/٣٧٨ ، ابن الأثير ٢/٢٣٦ .

(٤٨) ويروى (زافلة) بالزاي المعجمة .

(٤٩) السيرة ٢/٣٨١ .

(٥٠) السيرة ٢/٣٨٣ .

(٥١) السيرة ٢/٣٨٤ - ٣٨٥ ، ديوان حسان بن ثابت ص٩٩ - ١٠٠ .

(٥٢) البداية والنهاية ٤/٢٥٦ .

(٥٣) السيرة ٢/٣٨٦ - ٣٨٧ ، ديوان حسان ص١٩٧ .

(٥٤) السيرة ٢/٣٧٨ .

(٥٥) الديوان ص ١٠٢ .

(٥٦) السيرة ١/٣٨٧ - ٣٨٨ ، ديوان حسان ص١٠٢ .

(٥٧) السيرة ٢/٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٥٨) السيرة ٢/٣٨٨ .

(٥٩) ابن سعد ٢/١٣٠ .

(٦٠) امتاع الأسماع ص ٣٤٩ .

(٦١) الواقدي ٢/٧٦٩ .

(٦٢) السيرة ٢/٣٨٨ .

(٦٣) البداية والنهاية ٤/٢٢٩ .

(٦٤) سورة آل عمران آية ١٣ ، البداية والنهاية ٤/٢٥٩ .

(٦٥) السيرة ١/٧٠٦ - ٧٠٨

(٦٦) السيرة ١/٧١٤ .

(٦٧) السيرة ٢/١٢٩ .

(٦٨) قادة فتح الشام ومصر ص٢٦ - ٢٧ .

(٦٩) حياة محمد ص ٤١١ - ٤١٢ .

(٧٠) حياة محمد ص ٤١٢ .

مصادر ومراجع البحث

الاصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ط السعادة ، مصر ١٣٢٨ هـ .

إمتاع الأسماع - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) تحقيق محمود محمد شاكر ، ط مصر ١٩٤١ ، تصوير دولة قطر .

البداية والنهاية - أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ط الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٨٠ م .

تاريخ ابن الأثير (الكامل في التاريخ) - علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، ط صادر ، بيروت ١٩٦٥ م .

تاريخ الطبري - الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ م .

حياة محمد - محمد حسين هيكل ، ط مكتبة النهضة مصر ١٩٦٨ .

ديوان حسان بن ثابت الأنصاري - ط صادر ، بيروت .

سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) - عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) ، تحقيق السقا والأبياري وشلبي ، ط مصر ١٩٥٥ .

طبقات ابن سعد (الطبقات الكبرى) - محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ) ، ط صادر ، بيروت ١٩٥٨ م .

قادة فتح الشام ومصر - محمود شيت خطاب ، ط دار الفتح ، بيروت .

مغازي الواقدي (كتاب المغازي) - الواقدي محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) تحقيق مارسدن جونس ، ط جامعة أوكسفورد ، لندن ١٩٦٦ م .